مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد السادس / العدد: الثاني
(جمادى الأولى 1444هـ/ ديسمبر 2022م)، ص 417– 437

أثر إسهامات الأطبّاء الموالي في العصر العبّاسي على الغرب المسيحي

Impact de la participation des médecins *el mawali* durant la période Abasside dans l'occident chrétien

[1] دحماني محمد dahmanii mohammed
[2] غرداوي نور الدين noureddine.gherdaoui
أستاذ التعليم العالي
[1] جامعة الجزائر2 mohammeddahmanii154@gmail.com
[2] جامعة الجزائر2 noureddine.gherdaoui@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 25 /2020/10 تاريخ القبول: 28 /2020/10

الملخص: يتناول هذا المقال أثر إسهامات الأطبّاء الموالي (في العصر العبّاسي) على الغرب المسيحي؛ من حيث تأسيس المناهج العلمية، وإكتشاف معارف طبّية جديدة، والسّبق في إكتشاف الأمراض الخطيرة والمستعصية وإنتهاج أساليب فريدة من نوعها في تشخيص وعلاج العلل والأمراض، وتأليف مؤلّفات عديدةٍ في ميدان الطبّ والصيدلة، وغيرها من الإنجازات الخالدة التّي إستفاد منها الغرب المسيحي في نهضته العلمية وجَعَلت هؤلاء الأطبّاء العظماء محلّ إحترام وإعجاب الأوربيين؛ بلْ إنّ مؤلّفاتهم أضحت مراجعَ مهمّةً لطلبة العلوم الطبّية والصيدلانية، ومحلّ إهتمام وترجمة علماء الغرب المسيحي.

الكلمات المفتاحية :الاطباء الموالي، العصر العباسي، الغرب المسيحي

Résumé:

Cet article traite l'impact des contributions des médecins *elmawali* (à l'époque abbasside) dans l'Occident chrétien. En termes d'établissement d'approches scientifiques, de découverte de nouvelles connaissances médicinales, de découverte de maladies dangereuses et insolubles, d'adopter des diagnostics des

maladies, et de publier de nombreuses recherches dans le domaine de la médecine et de la pharmacologie, dont l'Occident chrétien a bénéficié.
Les mots clés : Medecins *elmawali*, période abasside, occident chrétien

1. مقدمة:

بعد اِطلاعنا علىِ إسهامات بعض الأطبّاء الموالي في العصر العبّاسي، ومعرِفَتِنا لِأشهرِهم؛ لفت اِنتباهنا أُموراً عديدةً، تميّز بها هؤلاء عن غيرِهم من أطبّاء زمانهم، ومن سبَقهم، ومن جاء من بعدِهم، فلم يكتفوا بالنّقل والاقتباس والترجمة، وإنّما عكفوا على تحليل، وشرح، ونقد مؤلّفات سابقيهم، وإثرائها بالآراء والملاحظات، إمّا بِالترجيح، أوالاعتراض في بعض الأحيان، اعتمادا على ما توصّلوا إليه من نتائج؛ بعد الملاحظة والتجربة طبعاً. وبِالتّالي تمكنّوا من تأسيس مناهج علمية خاصة بِهم، واِكتشاف معارف طبّية جديدة، بل وصل بهم الأمر إلى السّبق في اِكتشاف بعض الأمراض الخطيرة والمستعصية ؛ من خلال تشخيصها، وشرح أسبابها وأعراضها، ووصف العلاج المناسب لها، وأساليب الوقاية منها؛ والتي أثبت الطبّ الحديث صِحّتها ونجاعتها، وبِذلك أعطت تلك المعارف دفعاً جديداً للعلوم الطبّية والصيدلانية، ووضعت حدّاً لِمعاناة البشرية من بعض الأمراض الخطيرة، والحالات التي كان ميؤوساً منها، كما كان لها الأثر البالغ فيما وصل إليه الطبّ الحديث.

أوّلاً : **السّبق في اِكتِشاف الأمراض**

إنّ السّبق في اِكتشاف الأمراض ووصف العلاج لها، جعل من هؤلاء الأطبّاء محلّ اِحترام وإعجاب الجميع وجعلت من مُؤلّفاتهم مراجع مُهمّةً لِطلبة العلوم الطبّية والصيدلانية في البلاد الإسلامية، ومحلّ اِهتمام وترجمة علماء الأمم الأخرى ؛ لاسيما في بلاد الغرب المسيحي، وسأُحاول بحول الله في هذا البحث المتواضع التطرّق إلى تلك الأمراض، مبيّناً اِكتشافات بعض الأطبّاء الموالي؛ السابق ذكرهم في الفصل الثالث.

يُعتبر " الرّازي [1] واحدٌ من هؤلاء الأطبّاء الموالي؛ الذين قدّموا خدماتٍ جليلةٍ للإنسانية، بفضل ذكائه الفائق وحكمتِه النّادرة، ومواهِبِه الكبيرة في ميدان الطبّ؛ التي برزت عندما كان في البيمارستان العضدي[2] ببغداد؛ فتوصلّ إلى اِبتكارات علمية؛ لم يسْبِقه إليها أحد من زُملائه في المِهنة، ولعلّ خير مثالٍ على ذلك؛ تمكنّهِ من اِكتشاف مرضي " الجدري "و" الحصبة "؛ اللّذان كان ميؤوساً منهما، وحصدا، ولا يزالان لِحدّ

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد السادس / العدد: الثاني
(جمادى الأولى 1444هـ/ ديسمبر 2022م)، ص 417– 437

الآن يحصدان أرواحاً بشريةً. فقد تمكّن هذا الطبيب الكبير من تشخيص أعراضهما، وإعطاء وصفٍ دقيقٍ لهما ووصف العلاج المناسب لهما في القرن الرابع الهجري؛ من خلال رسالة في الجدري والحصبة، كتَبها لأمير بُخارى" المنصور [3]، وقد تُرجمت هذه الرّسالة إلى اللّاتينية في زمنٍ مُتقدّمٍ، ثمّ نُقِلَت بعدها إلى لُغاتٍ أُخرى عديدة؛ لاسيما الإنجليزية، حيث طُبِعت بها حوالي أربعين مرّةً خلال الفترة الممتدّة بين (1498 . 1866)، وبهذه الرّسالة وصلنا أوّل وصفٍ دقيقٍ لِهذين المرضين.[4]

لقد أبدع " الرّازي في وصف مرضي الجدري والحصبة، إذ يرى أنّهما يشتركان في بعض الأعراض، كالحمّى ووجع الظهر، وحكاك الأنف، والتفرّغ من النّوم، واشتعال اللّون، وشدّة حمرة الوجنتين، واحمرار العينين وثِقل الجسد، وكثرة التململ، والتثاوب، ووجعٌ في الحلق والصدر، وضيق التنفّس، والسّعلة وغلظ الرّيق، وبحّة الصوت ...إلخ، وبالرّغم من اِشتراكهما في هذه الأعراض الكثيرة؛ إلّا أنّ " الرّازي " بفضل اِطلاعه الواسع، وملاحظاته الدقيقة، تمكّن من التفريق بينها؛ إذ يرى أنّ القلق والضجر والكرب أكثر منه في الجدري، ووجع الظهر في الجدري أخصّ منه بالحصبة. وبعد ذلك حاول هذا الطبيب وصف العلاج المناسب لهما، وقدّم نصائح وافية لِعلاج البثور، وإزالة تلك الندوب والحفر الجلدية على البشرة بعد اِنتهاء المرض. [5]

إنّ هذا الاكتشاف العظيم وضع حدّاً لِأكثر الأمراض فتكاً بالنّاس، ومهّد الطريق لِطلبة العلوم الطبّية والأطباء المسلمين الذين جاؤوا من بعدِه؛ من تطوير أساليب علاج" الجدري والحصبة "، إذ اِستعملوا طريقة التطعيم للوقاية من الأمراض الوبائية، فكانوا يُطعّمون السليم بمادة مُستخرجة من بثرة الجدري نفسه في بداية اليوم الثامن، وبهذه الطريقة؛ قلّت نسبة الوفيات بنسبةٍ كبيرةٍ في البلاد الإسلامية، وأضحى هذا المرض الخطير مجرّد مرضٍ بسيطٍ؛ يُمكن مقاومته بالتطعيم.

إنّ تأثير هذا الاكتشاف لم يقتصر على البلاد الإسلامية، وإنّما تعدّاها إلى بلدانٍ أُخرى؛ لاسيما الغرب المسيحي. وفي هذا الشّأن يسرد علينا أحمد شوكت الشطّي قصّة وصول هذا الاكتشاف العظيم إلى الغرب مُستنِداً إلى رسالة كتبتها " ماري مُنتاغو"- زوجة سفير انجلترا في البلاد العثمانية سنة 1717 م- ؛ إلى إحدى صديقاتها، تُخبرها بأنّها لمّا زارت مدينة " أدرنه "[6] ووجدت أنّ مرض الجذري خفيف الوطأة فيها مقارنةً ببلادها؛ أين لا يزال يفتِك بالنّاس، وأنّ هذا المرض الخطير لا يُخشى شرّه هناك، لِأنّهم اِخترعوا

علاجاً يُسمّونه " التطعيم "، ويُطّعمون النّاس في شهر سبتمبر . أيلول . ؛ حينما تنخفض درجة الحرارة، وقد يتطّعمون في أرجلِهم، أوفي مكانٍ لا يظهر من أذرعِهم، وأخبرتها أنّه لم يُذكر أن مات أحد من التطعيم، وأنّها تعتزم على تطعيم نفسها وابنِها، وتجتهد في إذاعة هذا الاختراع في إنجلترا[7]، ولمّا عادت" ماري مُنتاغو" إلى بلادِها شرعت في إذاعة التطعيم، واتّصلت ببعض الأطبّاء، وحاولت إقناعهم بِجدواه، ورغم أنّ الحكومة البريطانية لم تُصادق عليه إلّا بعد سِتّين عاماً، إلّا أنّه شهِد إقبالاً عظيماً من عامة النّاس؛ لِأنّهم جرّبوه، وأدركوا مدى نفعه، بلْ إنّ زوجة وليّ عهد إنجلترا اِقتنعت بِفائدتِه، وطعّمت به أولادها أيضاً.[8]

ومن الاكتشافات المهمّة للرّازي في ميدان الطبّ؛ اِكتشافه لِخيوط الجراحة؛ المصنوعة من أمعاء الحيوانات فكان هذا الاكتشاف نُقطة تحوّل حاسمة في تاريخ الطبّ الجراحي، فأصبحت تُستعمل في جميع العمليات الجراحية في العالم الإسلامي، ثُمّ بلاد الغرب المسيحي؛ بل ما زالت لها دور مهمّ في علم الجراحة، إذ أثبت الطبّ الحديث أنّ الخيوط المعمولة من الأمعاء يمتّصها الجسم ويقبلها، فتصير جزءً منه.[9]

وكما أشرنا إليه سابِقاً؛ فإنّ الرّازي هوأوّل من فرّق بين الجراحة وغيرِها من الموضوعات الطبّية، وأوّل من جعل هذا العلم قائماً على التشريح ومنافع الأغذية، بل إنّ طريقة خياطتِه لِمختلف الأعضاء؛ كانت فريدةً، وفي غاية المهارة، ومحلّ إعجاب غيره من الأطبّاء؛ مثال ذلك، ما ذكرته " زيجيد هونكه ": " ... إنّ الرّازي علّم تلاميذه كيفية تخييط الجروح بشكلٍ داخليٍ، لا يترك شيئاً مِنها ... ".[10]

ويرى الرازي أنّ الطبيب لا يلجأ للجراحة إلّا اِضطراراً، أي إلّا إذا كانت هي الحلّ الأخير؛ وهوما نجده في قوله:" ... متى رأيت الطبيب يُبرأ بالأدوية التي تعالج بعلاج الحديد والعملية الجراحية مثل الخراجات واللوزتين والغدد... فمتى أجاد الطبيب في جميع هذه، ولا يحتاج في شيء منها إلى القطع إلّا أن تدعولذلك ضرورة شديدة...". [11]

ومن الإنجازات العظيمة التي تُنسَب إلى الرّازي دون غيرِه من الأطبّاء؛ هوتشخيصه لِما نُسمّيه اليوم بـ " الأمراض الوظيفية "، إذ أدرك الأصول النّفسانية لِالتهاب المفاصل الرّوماتزمي، ووصف طُرقٍ جديدةٍ لِعلاجِه وهوما تطرّقنا إليه سابقاً؛ أثناء سردِنا لِقصّة علاجِه لِأمير بُخارى، وكذا الجارية؛ التي تقوّست قامتها، فأدرك بذكائه الفائق، وحِسّه الطبّي العميق؛ أن هذا الدّاء من الأمراض الجسدية النّاتجة عن

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد السادس / العدد: الثاني
(جمادى الأولى 1444هـ/ ديسمبر 2022م)، ص 417– 437

إضطرابات نّفسية، وأكثر النّاس عُرضةً له ؛ أولئك الذين يكظمون نوبات الغضب في أعماقهم، لِذلك أُعتُبر مُبتكر الطبّ النّفسي. [12]

إنّ اِبتكارات الرّازي وسَبْقِهِ لِاكتشاف الأمراض وعِلاجِها؛ لم يقِفْ عند هذا الحدّ، وإنّما تعدّاه إلى اِبتكاراتٍ وإنجازات عظيمة؛ كان لها الأثر الكبير فيما وصل إليه الطبّ الحديث، فهوأوّل من عالج الحمّى بالماء البارد، كما استعمله في علاج الحروق[13]؛ وهي طريقة حديثة جِدّاً، وتُستعمل في الوقت الحاضر كإجراء إسعاف أوّلي لِحروق الأطراف؛ حيث يوضع العضوالمصاب في الماء البارد لمدّة لا تقلّ عن دقيقتين، وقد أثبتت التجربة أنّ هذه الطريقة تقلّل من الألم في ظرفٍ وجيزٍ.

إضافةً إلى كلّ هذا ؛ يُعتبر الرّازي أوّل من شخّص أمراض المثانة تشخيصاً علمياً دقيقاً [14]، كما أنّه قدّم شرحاً دقيقاً لِجراحة اِستخراج الماء الأبيض من العين، واكتشف ببراعةٍ نّادرةٍ البول السكّري، واستخدم الحقن الدوائية في علاج بعض الأمراض، كما كان له الفضل الكبير في علاج مرض" الطاعون " [15]؛ الذي يُعتبر من الأوبئة الخطيرة التي عانت منها البشرية في العصور القديمة والوسطى، كما كتب في أمراض الأطفال، وحاول فصله عن طبّ الكبار. [16]

أمّا الشيخ الرّئيس " ابن سينا "[17]؛ فإنجازاته وابتكاراته الطبّية لا تزال شاهدةً على عبقريّته وحِكمتِهِ ودهائه ومهّدت الطريق لِعلاج العديد من الأمراض المستعصية آنذاك. فالمتصفّح لِكتاب (القانون) يُلاحظ أنّ هذا الطبيب كان سبّاقاً في تقديم أوصافٍ دقيقةٍ لِكثير من الأمراض والعلل؛ يصعُبُ أن نُضيفَ إليها شيئاً في هذا العصر، وعالجَها بطُرقٍ تُضاهي ما يفعله الأطبّاء في زمانِنا .

إنّ ابن سينا هوأوّل من وضع تشخيصاً كاملاً للجمرة الفحمية؛ التي تُعرف اليوم بـ" الجمرة الخبيثة "[18] وسمّى الحمّى التي تنتج عنها بـ " الحمّى الفارسية "؛ وهويقول في هذا الشّأن:" ... وأُطلِق اسم الجمرة على كلّ ما يُسوِّد المكان، ويُفحِّم العضومن غير رطوبة، ويكون غائصاً ... وجميع ذلك يبتدِئُ بحكّةٍ كالجرَبِ وقد يتنفّط بالنّار الفارسية والجمر، ويسيل منه شيئٌ كما يسيل من المكاوي محرّق يكوي الموضع، رمادي في لونِه، وقد يكون مع هذه حميّات شديدة الرّداءة قتّالة ...". [19]

كما أنّه يُعتبر من الأوائل الذين خاضوا في علم الطُفيليات؛ من خلال وصفِه لِداء " اليرقان "، وكشفِهِ للدّودة التي تُسبِّبُه؛ التي تُسمّى اليوم بـ " الأنكليلوستوما" وقد ذكر محمد بن عبد الرّحمن مرحبا في كتابه:

أنّ أحد الأطبّاء المعاصرين لمّا اِطّلع على الفصل الخاص بالدّيدان المعوية من كتاب (القانون)، وبعد أن دقّق في مُحتواه؛ تبيّن له أنّ الدّودة التي ذكرها ابن سينا هي ما نُسمّيه اليوم بـ : " الأنكليلوستوما". [20]

لقد أبدع ابن سينا في وصف الأعراض وأمراضِها، وصفاً لا نزال نأخذ بنصيبٍ وافرٍ منه حتّى اليوم؛ فهوأوّل من وصف تصلّب الرّقبة، وأوّل من أعطى بعض التفاصيل لِاستئصال اللّوزتين، كما قدّم لنا شُروحاً مُفصّلة لِأنواع الأورام السرطانية، وكيفية اِستِئصالِها ؛ كسرطان الكبد، وسرطان الثّدي، وأورام داء الخنازير، إضافةً إلى أنّه من الأطبّاء الأوائل؛ الذين وصفوا أعراض حصى المثانة، والسّكتة الدّماغية، والقرحة الدّرنية، والقولنج الكبِدي والكِلَوي، وذات الرّئة، وذات الجَنبِ، وشلل الوجه. [21]

أمّا فيما يتعلّق بالطبّ النّفسي؛ فإنّ لِهذا العملاق إنجازاتٍ عظيمةٍ، وأساليب علاج فريدةٍ من نوعِها؛ اِنتهجها الأطبّاء من بعدِه، ولا يزال يعتمد عليها الطبّ الحديث؛ لاسيما فيما يتعلّق بالاضطرابات العقلية والنّفسية، وكذا طبّ النّفس الجسدي، والأمثلة عديدةٌ في هذا الشّأن؛ ذَكَرْنا بعضها في الفصل الثاني من هذا البحث، وسنذكر بِحول الله بعضها الآخر في هذا الفصل. وكما قُلنا سابِقاً؛ فإنّ هذا الحكيم قد خصّص أقساماً مُستقلّةً من كُتُبِه لِلأمراض العقلية والنّفسية، ورَبَط بعضَها بالتغيّرات الفسيولوجية، وأثبتَ أنّ بعضها ينعكس على عملية النّبض؛ من خلال تشخيصِه لِمرض العشق، وقد ذَكَرْنا قِصّة عِلاجِه لِشابٍ معشوقٍ تعرّض لِاضطراباتٍ نّفسيةٍ أقعدتْه الفِراش. [22]

ويقول ابن سينا إنّ معرفة المعشوق تُفيد الطبيب المداوي والمريض نّفسه، ويُشبِه هذا المنهج في العلاج النّفسي التحليل النّفسي المعاصر؛ الذي يستهدف كشف القناع عن مكبوتات المريض؛ المنسية والمتراكمة في أعماق اللاشعور، وكان ابن سينا ينصح للشفاء من علّة العشق بالنّوم والاهتمام بالتغذية، وإلهاء المريض عن معشوقتِه، وصرفِه عنها، وتوجيهه إلى أمورٍ أخرى، وهومنهج متّبعٌ في الوقت الحالي؛ إذ ينصح الأطبّاء مرضى العشق بالتفرّغ لِنشاطاتٍ؛ من شأنِها أن تُنسيه معشوقتَه، وتُقوّي شّخصيته، وتُفيد المجتمع؛ كالأنشطة الرّياضية والكشفية والعلمية والثقافية، والاشتراك في مشاريع الخدمة العامة. [23]

كما عالج الاكتئاب والوهم بِطريقةٍ ذكيّةٍ نادرةٍ نالت إعجاب الأطبّاء من بعدِه، وطبّقوها لِعلاج مثل هذه الحالات، ولا يزال الطبّ النّفسي الحديث يعتمد عليها، وقد ذكرنا سابِقاً؛ كيف عالج ذلك الشّخص الذي توهّم أنّه بقرة، وامتنع عن الأكل، وكاد أن يهلك، إضافةً إلى كلّ هذا؛ فإنّ لِابن سينا فضل السّبق في اِستخدام الأحلام في الكشف عن العلل والعقد النّفسية؛ إذ اِعتبر أنّ الأحلام الرّديئة والمزعجة والمشوّشة

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد السادس / العدد: الثاني
(جمادى الأولى 1444هـ/ ديسمبر 2022م)، ص 417– 437

وتلك التي ينساها الفرد؛ لكلٍّ دلالَتُه في الكشف عن المرض[24]، وهوبذلك سبق العالم المشهور " فرويد " [25] بمئات السنين في هذا المجال.

وكان لِابن سينا فضل السّبق في التعرّف على ما نصِفُه الآن بفصام الشّخصية؛ فيصف أعراض هذا المرض ويُشير إلى تخيّل أشياء لا وُجود لها؛ وهي تُعرف الآن باسم " الهلاوس السّمعية "؛ كسماع المريض أُناساً يسبُّونه ويتّهمونه، أو" الهلاوس البصرية "؛ كرُؤية أشياءٍ غير موجودةٌ في الواقع .[26]

إنّ عبقرية ابن سينا في الطبّ النّفسي لم تقف عند هذا الحدّ، وإنّما توصّل إلى حقائق مهمّة؛ أثبت الطبّ الحديث صحّتَها، فهوأوّل من تكلّم عن وحدة النّفس والجسد، وأثبت صحّة رأيِه؛ من خلال نقلِه من الميدان النّظري إلى التجريبي، ولعلّ تجربة " الحمل والذِّئب " من التجارب التي أثبتت نظريتَه، وأذهلت أطبّاء الغرب المسيحي؛ الذين توصّلوا إلى هذه الحقيقة بعد مرور المئات من السنين، فقد قام هذا الطبيب بِربطِ ذئبٍ وحملٍ في غرفةٍ واحدةٍ، وحرِص على أن لا يتمكّن أحدُهُما من الاقتراب من الآخر أويُلامِسُه، ثمّ راح يُراقب ما يطرأ على الحمل من تغيّراتٍ، فكانت النّتيجة؛ أن أُصيب الحمل بِهزالٍ شديدٍ، أدّى إلى وفاتِه؛ بسبب ما كان يعتريه من الفزع والخوف، وليتأكّد من نتائج هذه التجربة؛ أعادها مرّاتٍ عديدةٍ، وأضفت إلى نفس النتائج [27]، وقد حاول الدكتور" محمد بن عبد الرحمن مرحبا " مُقارنة هذه التجربة ببعض تجارب القرن العشرين؛ التي تُشبِه إلى حدٍّ بعيدٍ تجربة ابن سينا، وأضفت إلى نفس النّتائج، وأثبتت تأثير الاضطرابات النّفسية على الجسد.

ذكر الدكتور" محمد بن عبد الرحمن مرحبا:" أنّ أحد علماء القرن العشرين؛ قام بإسماع بعض الفئران لِشريطٍ يُسجّل معركةً دائرةً بين قطٍّ وفأرٍ، فكانت النّتيجة؛ إصابة بعض الفئران بالذّبحة القلبية؛ بِسببِ الهلع والخوف كما قام أحدهم بوضع قردٍ في ماءٍ باردٍ؛ ممّا أدّى إلى إصابتِه بالقرحة المعِدية؛ نتيجة الخوف، كما ذكر أنّ أحد العلماء؛ قام بتسلّق أحد الجبال، وأثناء هذه المغامرة؛ سقط وكاد أن يهلك؛ ونتيجةً لِهذه الصّدمة النّفسية أُصيب بِارتجافٍ شديدٍ، وأضحى لا يقوى على الحركة، إضافةً إلى اِضطراباتٍ نّفسيةٍ وصبيةٍ أُخرى، وهوما حمله على دراسة أثر الإرهاق والخوف على الحيوانات؛ فلاحظ عليها الاضطرابات العصبية والغددية، وتوصلّ إلى ما توصلّ إليه ابن سينا قبل أكثر من عشرة قُرونٍ، وبالتّالي فإن هذه الحقائق التي توصلّ إليها هؤلاء العلماء؛ من خلال تجارِبهم؛ أثبتت صحّة آراء ونظريات ابن سينا في ميدان طبّ

النّفس الجسدي، وأنّ إقدام هذا الطبيب العملاق على التجربة؛ لم يكُن وليد الصُّدفة، بل هوولِيد القصد والتوجيه. [28]

أمّا الطبيب المشهور " الحسن بن سوار "[29] فهوالآخر كان له فضل السّبق في الاختصاص بطبّ المشايخ؛ حين أدرك بِذكائهِ الفائق أنّ بعض الأمراض التي تُصيب كبار السنّ؛ تختلِف عن تلك التي تتعرّض لها الفِئات العمرية الأخرى، وبذلك تميّز عن غيره من الأطبّاء المسلمين؛ في كونه أبدى اِهتماماً بالغاً بصحّة المسنّين، وكما أشرنا إليه سابقاً؛ فإنّ هذا الطبيب شرح ما توصّل إليه من أبحاثٍ حول الحالات المرضية التي تصيب كبار السنّ، وطرق علاجها في كتابه: (تدبير المشايخ)؛ على طريقة المسألة والجواب، والذي أصبح مرجعاً مُهمّاً لدى الباحثين وطلّاب العلوم الطبّية، وظلّ كذلك لِفترةٍ طويلةٍ من الزمن. [30]

وعلى غرار " الحسن بن سوار " أدرك " أحمد الطبري "[31] أنّ الأمراض التي تُصيب الإنسان تختلف من فئةٍ إلى أُخرى، فقرّر التخصّص في طبّ الأطفال، وكان له فضل السّبق في فصلِه عن طبّ البالغين ؛ إلى جانب الرّازي لِأنّه كان مُقتنعاً بأنّ هناك بعض الأمراض التي تُصيب الطفل لا يتعرّض لها البالغ؛ وهوما يُميّزُه عن غيرِه من أطبّاء العرب والمسلمين، فنجدُه يُبدِع في وصف أمراض الجرَب، والإسهال، والكزاز، وأمراض العين والأنف وغيرها من الأمراض التي تُصيب الطفل؛ منذ وِلادَتِه إلى غاية بلوغِه سنّ الرّشد.

وقد أشرنا أنّ هذا الطبيب قد عارض سابقيه ومُعاصريه من الأطبّاء؛ الذين اِكتفَوا بعلاج المرضعة دون الرّضيع، لِذلك أصّر " الطبري " على ضرورة العناية بالرّضيع، وتنظيف الحبل السرّي لأنّ تلوّثه يُسبّب الكزاز، وتغذِيَته إلى غاية نُموأسنانه، إضافةً إلى اِستعمال لبن الأمّ للمولود، وتفادي اِستخدام أدوية البالغين للأطفال؛ لِأنّ معدّتهم ومزاجهم لا يحتمل ذلك.[32]

وهي نفس النّصائح التي يُقدّمها الأطباء في الوقت الحالي. إضافةً إلى كلّ هذا ؛ كان للطبري فضل السّبق في اِكتِشاف للّقاح الميكروبي لِداء الحكّة. [33]

أمّا ابن مسكويه؛ فيُعتبَر أوّل من أعطى صورةً شاملةً لِمرض الجذام [34]؛ دون أن يربِطه بغضب السماء أوعِقاب الله، بل صوّرَه كمرضٍ مُعدٍ؛ اِهتمّ به أطبّاء كثيرون غيرُه كابن الجزّار من مدينة القيروان؛ الذي قدّم شرحاً مُفصّلاً لِأسبابِه وطُرُق علاجِه. [35]

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد السادس / العدد: الثاني
(جمادى الأولى 1444هـ/ ديسمبر 2022م)، ص 417– 437

2. طريقة العلاج

تكلمنا سابقاً عن المنهج العلمي الذي اِتّبعه الأطبّاء الموالي في معالجة مرضاهم ؛ الذي يعتمد على التجربة والملاحظة، ثمّ وصف العلاج؛ بِناء على ما توصّلوا إليه من نتائج، خِلافاً للمنهج الفلسفي النّظري الذي اِتّبعه أطبّاء الأمم الأُخرى؛ لاسيما الفرس واليونانيين، فأمكنهم ذلك من اِكتشاف معارف طبّية جديدة؛ أعطت لهذا العلم دفعاً جديداً نحوالتطوّر، وكان لها الفضل الكبير فيما توصّل إليه الطبّ الحديث.

إنّ طريقة العلاج التي اِنتهجها الأطبّاء الموالي ؛ قِوامها التحليل التجريبي الدقيق، وعدم الرّكون إلى الخرافات والأوهام والأساطير ؛ التي لا تُجدي صاحِبها شيئاً، ومُحاربة كلّ مظاهر الدّجل والشّعوذة والسّحر؛ ونسب العلل والأمراض إلى عوامل خفيّة وغيبية، وسنُحاول بحول الله التذكير ببعض طرق العلاج؛ التي اِنتهجها بعض الأطبّاء الموالي، مُركِّزاً على الرّازي وابن سينا؛ باعتبارِهما الأكثر تأثيراً على الغرب المسيحي دون غيرِهم.

قبل التطرّق إلى طرق علاج الرّازي وابن سينا؛ لابدّ نُشير إلى أنّهما اِعتمدا على من سبقوهم من أطبّاء العالم الإسلامي، وعلى رأسِهم أستاذ الرّازي: " علي بن ربن الطبري " ؛ الذي قدّم لنا بعض الحِكم والأقوال التي تدلّ على تمكُّنِه في حقل الطبّ؛ والتي ليست بعيدةً عن الأفكار والنّصائح الطبّية الحديثة التي يُقدِّمها الأطبّاء هذه الأيّام، وقد أشرنا سابِقاً إلى بعضها؛ لمّا عرَّفنا بهذِه الشّخصية، منها قولُه: " السلامة غاية كلّ سُؤال " و" طول التجارب زيادةٌ في العقل " و" الطبيب الجاهل مُستحثّ الموت " ...إلخ. (36)

أثبت هذا الطبيب أهميّة المنهج التجريبي في علم الطبّ؛ وهوما أدركه تِلميذُه " الرّازي "؛ الذي سيُحدِث ثورةً حقيقيةً في ميدان العلوم الطبّية، فكيف ذلك يا تُرى ؟

إنّ طريقة علاج الرّازي لمرضاه تعتبر نموذجاً للمنهج التجريبي الذي اِتّبعه الطبيب المسلم؛ والذي لا يختلف عمّا هومُتّبع في الطبّ الحديث، ونُحسّ من خلال قِراءتنا لملاحظاته وشُروحاته؛ أنّنا أمام طبيبٍ من القرن العشرين وليس من القرون الوسطى، فقد اِتّسمت تجاربُه بالدّقة والمقاربة، وقوّة المقاربة، والقدرة على تمييز الدلائل وتقويهما، ثمّ وصف العلاج المناسب للعِلل والأمراض؛ بِناء على النّتائج التي توصلّ إليها،

كما عُرِف عنه؛ أنّه كان يجري تجاربه على الحيوانات، خاصةً القِردة؛ لِشدّة شبهِها بالإنسان، فكان يختبِر تأثير الأدوية فيها ويُسجّل جميع ما يُشاهِدُه، كما كان لا يتردّد في تجريبِه في نّفسِه قبل المريض؛ في حالة إصابتِه بِعِلّةٍ مرضيةٍ. (37)

لقد أجمع الجميع بِما فيهم علماء الغرب المسيحي، أنّ الرّازي هومُكتشِف ما يُعرف بـ" الطبّ السريري" المبنيُّ على الإحاطة بأحوال المريض في معيشتِه، ومزاجِه، ونومِه، ويقظتِه. ومن هذا المنطلق؛ كان الرّازي يُلّح على ضرورة الإنصات إلى المريض أثناء وصفِ شكواه، وحُسنِ مُساءلتِه عن أحوالِه الشّخصية؛ فكان يدع المريض يسرُد قِصّتَه، ثُمّ يسألُه عن أحوالِه وبيئتِه، ثُمّ يُدوّن جميع ذلك؛ للرّجوعِ إليه عند الحاجة، مع الحِرص الشّديد على مُلازمتِه، وملاحظة جميع أحوالِه. (38)

إنّ عملية تدوين الملاحظات السرسرية التي اِنتهجها الرّازي لم تقتصِر على أحوال المريض الشّخصية، وإنّما شمِلت أعراض الحالات المرضية، وتاريخ الإصابةِ بالمرض، ومراحل علاجِه، وعلامات كلّ مرحلة، كما كان يذكر طبيعة العِلّة؛ سواء كانت قابِلةً للعلاج، أومِيؤوساً منها، أومُزمِنةً، إضافةً إلى وصف مزاج المريض ومهنته وعُمرِهِ وجِنسِه، وبالتّالي كان للرّازي فضل السّبق في تدوين الملاحظات السرسرية؛ التي لم يعرِفها الغرب المسيحي إلّا سنة 1502م؛ عندما جرّبَها الطبيب الإيطالي " بنيفيتي " المعروف بـ " أُنطونيوالفلورنسي" ثُمّ انتشرت في مناطق مختلفة من أوربا. (39)

وفيما يتعلّق بتشخيص العلل والأمراض؛ فقد اِعتمد الرّازي طريقةً لا تزال مُتّبعةً في الوقت الحالي، وهي الاستدلال بالنّبض والبول، إذْ أثبت الطبّ الحديث إمكانية التفريق بين العلل؛ من خلال النّبض، ومظاهر الأبوال المختلفة؛ كأنواع الرّسوب، وألوان البول، وشُفُوفيتِه، وعكارتِه. واِستِناداً إلى هذه المعطيات؛ يُمكن وصف العلاج المناسب لِكلّ حالة. (40)

أمّا الحكيم ابن سينا؛ فلا تختلف طريقة عِلاجِه لمرضاه عن تلك التي عُرِف بها الرّازي، فاستطاع بِذكائه الخارِق أن يستفيد من المجهودات التي بذلَها سابِقوه، وعمِلَ على تطوير المعارف الطبّية الموروثة، وإثرائِها بالإضافات، وذلك بِاستخدام الخبرة والتجربة العِلمية، فنجِدُه على غِرار الرّازي، يُدوِّن الملاحظات السريرية، ويحرِص على الإنصات إلى المريض أثناء بثّ شكواه، والسؤال عن أحوالِه الشّخصية؛ وقِصّتِه مع المرض، ومُستوى معيشتِه والبيئة التي يعيش فيها، والتعرّف على أُسرتِه؛ واِحتمال إصابتِها بالمرض ...إلخ، وبالتّالي جَرّب ابن سينا الطبّ السريري، وأدرك هذه الأمور؛ التي لا يزال يعتمِد عليها الطبّ الحديث. (41)

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد السادس / العدد: الثاني
(جمادى الأولى 1444هـ/ ديسمبر 2022م)، ص 417– 437

لقد أدرك الشيخ الرّئيس أهمية النّبض والبول والبُراز في الاستدلال[42]؛ لِتشخيص مُختلف الأمراض والعلل وهي كما أشرنا لا تختلف كثيراً عمّا هومُتّبعٌ في الوقت الحالي، وبعد اِطّلاعي على تفسير ابن سينا لِهذه الأمور الثلاثة؛ تَيَقَّنْتُ أنّ هذا الطبيب غير عادي، فهل يُعقلُ أن يكون طبيباً من القرون الوسطى؛ مُطّلِعاً على كلّ هذه الحقائق الطبّية ؟

بالفعل كان ولا يزال ابن سينا من أعظم الأطبّاء الذين عرفتهم البشرية.

دَرَسَ ابن سينا النّبض دراسةً وافيةً، ورَبَطَ بين أحوالَه المتفاوتة وبين الأمراض المختلِفة، وذَكَر حالتَه في كلّ مرضٍ، وأثبتَ اِختلافه من شّخصٍ لِآخرٍ؛ حسب الفئات العمرية، وبَيَّنَ علاقتَهُ بالاضطرابات النّفسية وشَرَحَ بالتفصيل تبايُنَهُ واِختلافه في الحالات النّفسية؛ كالغضب، والخوف، والخجل، وللمنازعة العادية والمفاجئة، والسرور ...إلخ.[43]

أمّا فيما يتعلّق بالبول؛ فقد اِعتمد عليه ابن سينا، واَستدلّ به في تشخيص مختلف الأمراض؛ من حيث قِوامِه ولونِه، وكثافتِه، والرّواسب التي يُخلِّفُها.[44]

إضافةً إلى كلّ هذا؛ فإنّ لِابن سينا رأيٌ خاصٌ في الحالة التي ينبغي أن يظهر بها الطبي ؛ أثناء عِلاجِه للمريض، فهويرى أنّ لِوضعِ الطبيب وحالته المعنوية أثراً كثيراً في شفاء الأمراض، فإذا كان الطبيب بشوشاً مُبتسِماً؛ وجد تجاوُباً كبيراً من المريض، ويقول في هذا الشّأن: " ... ينبغي للطبيب أن يكون دائماً مُبشّراً بالصّحة؛ فإنّ للعوارض النّفسانية تأثيرات عظيمة...". [45]

3. الجانب الإنساني:

إنّ التعامل مع المريض يقتضي مُعاملةً خاصةً؛ قِوامُها الرّأفة والعطف، وبثّ روح الأمل؛ وهذا ما أدركَه الأطبّاء المسلِمون، لاسيما الموالي؛ الذين كانوا السبّاقين لِهذه المعاملة دون غيرِهم، وسنسعى بحول الله إلى التطرّق لِبعض المواقف الإنسانية لِبعض الأطبّاء الموالي، ومُقارنتِها بنظرة الطبيب الأوربي للمريض؛ وتعامُلِه معه. وبالعودة إلى المراجع التي تحدّثت عن هذا الموضوع؛ آثرنا أن نستدل بما قالته المستشرِقة الألمانية" زيجريد هونكه" من مُنطلق مبدأ " وشهِد شاهِدٌ من أهلِها ".

فالمتصفِّحُ لِكتاب (شمس العرب تسطع في الغرب) يُدرك أنّ هذه المستشرقة قد اِتّسمت بالموضوعية، وأنصفت المسلمين، وأبرزت دورهم الحضاري على الغرب المسيحي؛ لاسيما في ميدان الطبّ.

لقد أكّدت " زيجريد هونكه " على الجانب الإنساني للطبيب المسلم، وذكرت بعض المواقف الإنسانية لِبعض الأطبّاء الموالي، فالرّازي مثلاً؛ يُعتبر أوّل طبيبٍ فكّر في مُعالجة المرضى الذين لا أَمَلَ في شِفائهم، واِهتمّ بهم اِهتماماً كبيراً. وكما قُلنا سابِقاً؛ فإنّ من أهمّ ما قاله الرّازي في هذا الشّأن: " ... يجب على الطبيب أن يوهم المريض بالصحّة، ويُرّجيه بها، وإذا لم يثق هوبِذلك؛ فمزاج الجسم تابعٌ لِأخلاق النّفس ...". [46]

ويتجلّى من خلال هذا القول؛ أنّ الرّازي كان إنسانياً إلى أقصى الدّرجات، فبالرّغم من إدراكِه أنّ حالة المريض ميؤوساً منها؛ ولا عِلاج لها، إلّا أنّه كان يسعى إلى بثّ روح الأمل وقُوّة الحياة فيه[47]، ولكنّ هذه المواقف النّبيلة للرّازي؛ أحدثت مُعارضةً شديدةً من بعض علماء الغرب المسيحي، إذ اِعتبر بعضُهُم أنّ هذا العمل أحمقٌ ولا خُلُقي؛ بِاعتباره لا يلفِت أنظار المريض إلى ما ينتظِرُه من مصير؛ يحول دون التّوبةِ والتَوَجُّهِ إلى الله، وتسليم أمرِهِ لله، وبالتّالي بَيَّنَت هذه المواقف قسوة هؤلاء، وتجرُّدِهم من إنسانيتِهم؛ في تعامُلِهم مع المرضى لميؤوس من حالتِهم، إذ كانوا لا يتردّدون في إخبار مرضاهم بِمصيرِهم، ولا يحجمون عن قتلهم أحياناً.[48]

كما أنّ الرّازي عُرِف بتواضعِه الكبير، ورأفتِه بالضعفاء، وحُبِّه للفقراء، وحُسنِ تعامُلِه مع المرضى؛ مهما كانت حالتهم وهوما جعله يحظى بِحُبِّهم واِحترامِهم وتقديرِهم.

أمّا الشيخ الرئيس " ابن سينا " فنجِدُه على غرار الرّازي، يتعامل مع مرضاه بِإنسانية فائقة، جعلته محلّ إعجاب وتقدير من حولَه من النّاس، ولعلّ من أهمّ وأجلّ صُوَرِ شخصِيتِه الإنسانية؛ هوتعامُلِه مع مرضى الأعصاب؛ أوالمجانين، فقد كانت نظرتُهُ لهم نظرةً إنسانيةً ساميةً، فلم يعتبِرهم مُجرمين أومُذنبين، وإنّما نظر إليهم كمرضى يحتاجون إلى العلاج، ودعا إلى حُسن مُعاملتهم، واللُّطفِ معهم، وتحسين تغذِيتِهم ونومِهِم وشرابِهِم، وتمتُّعِهِم بالرّاحة والهواء الطّلق، وسماع الموسيقى والطرب، كما كان يُعالِجُهُم مجّاناً، ويتصدّق عليهم من مالِه الخاص. هذا في الوقت الذي كان فيه المرضى المجانين في أوربا المظلِمة حضارياً؛ يُعامَلون مُعاملةَ السُجناء، ويعيشون معيشة القطعان، فكانت أيديهم وأرجُلَهُم تُغَلّ بالسلاسل الحديدية، وكان النّاس يخشَوْنَهُم، ويشعرون بالعار والخجل منهم. [49]

وتقول زيجريد هونكه" في هذا الشّأن: " ... ولنا أن نذكر نظرة الغرب إلى هؤلاء المرضى المساكين خلال القرون الوسطى، فنرى هوْلاً وبشاعةً بالِغين؛ مبعثُها الاعتقاد السّائد آنذاك، والذي غذَّتْهُ الدعاوات الدّنيئة

الخاطِئة؛ بِأنّ هذا المريض لعنةٌ من السماء؛ حلّت بصاحِبِها عِقاباً له على إثمٍ زعموا أنّه ارتكبَه، أوشيطاناً دخل في نّفسِه، وبالتّالي يجوز عذابُه".[50]

أمّا الطبيب الكبير " الأهوازي " فلا تقلّ معاملتُه الإنسانية لمرضاه عن تلك التي رأيناها عند الرّازي وابن سينا، ذلك أنّه كان ينصح الأطبّاء بالتواضع، ورقّة الكلام مع المرضى، والرّحمة والعطف على الفقراء، والابتعاد عن اللّهووشرب الخمر والفجور، وصفاء النّية في النّظر إلى النّساء، وعدم وصف الأدوية القاتلة، أوالمساعدة على إسقاط الأجنّة، وكثرة المداولة لِأمور المرضى، وملازمة البيمارستانات، كي يسهّل الاتصال به في حالة الضرورة.[51]

4. **المؤلّفات:**

إنّ كلّ ما قيل حول إسهامات الأطبّاء الموالي في مختلف الاختصاصات الطبّية؛ من حيث السّبق في اِكتشاف العلل والأمراض، ووصف أعراضِها وتشخيصِها، والمنهج المتّبع لِعلاجِها، والجوانب الإنسانية الرّاقية التي مَيّزت تعامُلَهُم مع مرضاهُم، ما كان لِيصِل إلينا؛ لولا المؤلّفات الكثيرة التي تركَها هؤلاء، والتي تركت بصماتِهم في هذا المجال، وأعطت دفعاً جديداً لِعلم الطبّ؛ فأضحت مراجع مهمّة لِطلبة العلوم الطبّية والصيدلانية في البلاد الإسلامية، وكذا الغرب المسيحي، إذ دأب الأوربيون على ترجمتِها إلى لُغاتِهم، والاستفادة من المعارف الطبّية الثمينة التي تحتويها، وظلّت هذه الكتب لِفترةٍ طويلةٍ؛ ضِمن الكتب الطبّية القليلة الموجودة في كُلّياتهم.[52]

إنّ المتصفِّح لِمؤلّفات الأطبّاء الموالي يُدرِك أنّ هؤلاء كانوا في قمّة الأمانة العلمية، من خلال نَسْبِ الآراء والأفكار إلى أصحابِها؛ لاسيما الأقدمين من اليونانيين والفرس، فكان كلّ ما كتبوه هوعبارة عن سردٍ لِتلك الآراء وإثراءٍ لها بالملاحظات والإضافات، والتعليق عليها؛ إمّا بالترجيح أوالاعتراض عليها ونقدِها أحياناً، وهذا ما أشرنا إليه سابِقاً، وسنحاولُ بحول الله في هذا المبحث التركيز على أشهر تلك المؤلّفات وأكثرِها تأثيراً على الغرب المسيحي.

يُعتبر كتاب (فردوس الحكمة) لِابن سهل الطبري من الكتب التي لَقِيَت إقبالاً كبيراً من طرف طُلّاب العلم في زمانه، ومن بَعدِه؛ أمثال : تلميذه " الرّازي "، والحكيم " ابن سينا " و" ابن عبّاس الأهوازي " وغيرِهم من أطبّاء العالم الإسلامي؛ الذين اِستفادوا كثيراً من هذه الموسوعة العلمية؛ التي اِكتسبت طابعاً

نظرياً وعلمياً في آنٍ واحِدٍ؛ وهوما زاد من القيمة العلمية لِهذا الكتاب، إذْ جمع فيه بين العلوم الطبّية والأفكار والنّظريات الفلسفية لِمن سبقوه من الأطبّاء والحُكماء؛ خاصةً أبقراط، جالينوس، أرسطو، حنين بن إسحاق، ثابت بن قُرّة، وغيرهم.

كما اِعتمد " ابن ربن الطبري " على هذه الآراء والأفكار، وأضاف إليها المعارف التي توصّل إليها؛ بعد التجربة والملاحظة. (53)

أمّا كتاب (الحاوي في الطبّ) للرّازي؛ فهومن أهمّ وأجلّ الكتب التي ألّفها هذا الطبيب، لما يحتويه من معارف طبّية قيّمة؛ اِستفاد منها غيره، ويذكر ابن أبي أُصيبعة في هذا الشّأن: " ... إنّ هذا الكتاب من أجلّ كتب الرّازي وأعظمُها في صناعة الطبّ، وذلك لِأنّه جمع فيه كلّ ما وجدَهُ مُتفرّقاً في ذكر الأمراض ومُداواتِها ومتابعتِها؛ من سائر الكُتُب الطبّية للمتقدّمين، ومن أتى بعدهم إلى زمانِه ...، ونَسبَ كلّ شيء نقلَه فيه إلى قائلِه ... ". (54)

كان هذا الكتاب موسوعةً علميةً شاملةً، جَمَعَ فيها الرّازي كلّ ما توصّل إليه الطبّ اليوناني والسرياني والعربي؛ من معرفةٍ واِكتِشافاتٍ، وهي عبارة عن عملٍ قام به ولمْ يُكمِله؛ بعد أن أدركه الموت، فتكفّل تلاميذه بذلك، ووضعوه بِشكلِه النّهائي، ولم يَصِلنا منه إلّا عشرة مُجلّدات من أصل عشرين مُجلّداً. ويُعتبر الطبيب اليهودي: " فرج بن سالم " أوّل من ترجمه إلى اللّاتينية سنة 1279م، وانتشر في القرون التالية على شكل مخطوطاتٍ، ثُمّ طُبِع سنة 1486م، وما إن حلّت سنة 1542م حتّى كان يوجد من هذا الكتاب النّفيس خمس طبعاتٍ؛ عدة أجزاء منه كثيرة طُبِعت مُنفصلةً، لِذا كان أثرُه في الطبّ الأوربي عظيم. (55)

إضافةً إلى هذا الكتاب ألّف الرّازي كُتُباً أُخرى لا تَقلّ أهميّةً عن الحاوي، ولعلّ أهمّها: كتاب (المنصوري في الطبّ)؛ الذي ألّفَه للأمير " منصور بن إسحاق "؛ والمتكوّن من عشر مقالاتٍ. (56)

ونظراً لما يحتويه هذا الكتاب من معارف طبّية ثمينة؛ فقد كان محلّ إعجاب أطبّاء الغرب المسيحي؛ الذين دأبوا على ترجمَتِه إلى لُغاتِهم للاستفادة منه، وأوّل من ترجَمَهُ إلى اللّاتينية " جيراردوالكريمونتي "(57)، وتمّ طبعُه في ميلانوسنة 886 هـ، وبقي من بين المراجع الرّئيسية في جامعات أوربا حتّى القرن السابع عشر الميلادي. (58)

ولأبي بكر الرّازي كتاب (الجامع) الذي يحتوي على معارف طبّية في غاية الأهميّة؛ تتعلّق بعلم الصيدلة، وتصنيف وتفسير الأدوية البسيطة والمركّبة، ومنافع الأغذية، ووصفات طبّية أخرى؛ جَمَعَها

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد السادس / العدد: الثاني
(جمادى الأولى 1444هـ/ ديسمبر 2022م)، ص 417– 437

من كُتُب الأقدمين، ومن عاصرهم من الأطبّاء؛ وبالتّالي كان لِهذا الكتاب الأثر البالغ في تطوّر علم الصيدلة.(59)

ومن الكتب النّفيسة التي كان لها تأثير على الغرب المسيحي: كتاب (القانون في الطبّ) لِابن سينا؛ الذي كان على غرار (فردوس الحكمة) و(الحاوي في الطبّ)؛ فهوموسوعةً طبّية نّادِرة، فَضَّلها طُلّاب العلوم الطّبّية والصيدلانية على من سَبَقَه من مُؤلّفات؛ لِما وجدوا فيه من حُسنِ التَبْويبِ، وسُهولة الأسلوب، والدّقة الفائقة في تشخيص الأمراض والعِلل، ووصف العلاج لها، والشّرح المفصّل للعقاقير والأدوية البسيطة والمركّبة والمفردات الطبّية التي تدخل في التداوي. وبالتّالي؛ اِحتوى هذا الكتاب على المعلومات الضرورية التي يحتاجُها طالب العلم والطبيب والهاوي.(60)

لقد جمع ابن سينا في هذه الموسوعة العلمية المتكاملة؛ نظريات وآراء من سَبَقَه من الأقدمين والمعاصِرين له وأضاف إليها المعارف التي توصّل إليها؛ بعد التجربة والبحث والاستقصاء، وهوما زاد من قيمة هذ الكتاب النّفيس؛ الذي نال شُهرةً عظيمةً، ولَقِيَ إقبالاً كبيراً من ذَوِي الاختصاص في البلاد الإسلامية والغرب المسيحي بعد أن تُرجِم إلى اللغة اللّاتينية في القرن الثالث عشر الميلادي. ويُعتبر" جيراردوالكريمونتي " أوّل من ترجم هذا الكتاب إلى اللّاتينية، ونَقَلَه إلى أوربا؛ بعد عناءٍ ومشقّةٍ كبيرين، ويقول في هذا الصدد: " ... لقد قضيت أكثر من نصف قرنٍ في تعلّم العربية، وترجمة نفائس الكتب العربية، فكان أعظم كتابٍ لاقَيْتُ في نّقلِه مشقّةً وعناءً ...".(61)

وبعد هذه الترجمة أضحى هذا الكتاب في وقتٍ وجيزٍ من أهمّ المصادر الطبّية في كُلّيات الطبّ الأوربية، وظلّ كذلك حتّى أواسط القرن السّابع عشر الميلادي، وقد تعرّض أصله العربي إلى الضياع وأُعيدت ترجمته من النّص اللّاتيني إلى العربية في عام 1373م في روما، وطُبِع باللّغة اللّاتينية أكثر من عشرين مرّةً في القرن السادس عشر الميلادي.(62)

إنّ الإقبال الذي لَقِيَه كتاب (القانون في الطبّ) في أوربا؛ أكّد على عبقرية ابن سينا، وتفوّقِه في ميدان الطبّ وهي حقيقةٌ أدركها الأوربيون أنفُسِهِم، بل إنّ بعضهم أنصف الرجل. وفي هذا الصدد؛ يذكر أحمد شوكت الشطيّ أنّ مسؤولةً في قسم المخطوطات بالمكتبة الأهلية بباريس تسمّى " دالبرني " كتبت عن أثر ابن سينا العلمي في أوربا، حيث قالت: " ... إذا اِستعرضنا المخطوطات الموجودة لِكُتُبِ ابن سينا

ورسائِلِه، وحَكَمْنا على أهميّتها بِعددِها، فقد يكون كتاب القانون ورسالة النّفس في كتاب الشّفاء من أعظم ما أُعجِب به الباحثون ومن أكثر ما دَرَسوه، وقلّ ما تجدُ مكتبةً من مكتبات أوربا؛ لا تخلومن مؤلّفات ابن سينا؛ الشيء الذي جعلَه أكبر وأعظم شخصية في الطبّ عرفتها القرون الوسطى... ".[63]

أمّا " وليم أوسلر " [64] فهويعتبر أنّ كتاب (القانون) كان بمثابة الإنجيل الطبّي؛ الذي ظلّ مُتداولاً في كلّيات الطبّ الأوربية لِأطول فترةٍ من الزمن.[65]

وممّا يدلّ على تأثير هذا الكتاب على الغرب المسيحي؛ هوأنّ الكثير من العقاقير التي وَصَفَها ابن سينا لِمرضاه في هذا الكتاب؛ ظلّت محتفظةً بِأسمائها العربية كالعنبر، الزعفران، الكافور، المسك ...إلخ .[66]

أمّا كتاب (كامل الصناعة الطبّية) أو(الكتاب الملكي) لِعليّ بن العبّاس الأهوازي؛ فلا تقلّ أهميّته عن باقي الكتب السابق ذكرها، إذْ حضِيَ بتقدير مؤرّخي الطبّ؛ من حيث عرضِهِ الواضح، ونَقدِهِ وتَقديرِهِ الصّائب لِمن سَبَقَه من الأطبّاء والحُكماء، ومُوازَنَتِهِ بين الطبّ العملي والنّظري، وشرحِه المفصّل لمختلف الأمراض والعلل ووظائف الأعضاء.

وكما أشرنا إليه سابقاً ؛ حين تعريفنا لهذا الطبيب، فإنّ هذا الكتاب كان موسوعةً طبّيةً شاملةً آنذاك وواحد من المؤلّفات الشهيرة والمهمّة في الطبّ الإسلامي في القرن الرابع الهجري [67]، وتفوّق على جميع الكتب المعروفة يومذاك، إذ فضّله طلّاب العلوم الطبّية على كتاب (المنصوري) للرازي، و(فردوس الحكمة) لابن ربن الطبري، وبقي كذلك حتّى ظهور كتاب (القانون في الطبّ) لِابن سينا فتحوّلوا إليه؛ وقد أشرنا إلى ما قاله القفطي في هذا الصدد؛ حين قال:" ... وصنّف للملك عضد الدولة " فخناسروبن بويه " كنّاشه المسمّى بالملكي، وهوكتاب جليل في كنّاشٍ نبيلٍ، اِشتمل على علم الطبّ وعمله، حسن الترتيب، مال النّاس إليه في وقته، ولزموا دراسته إلى أن ظهر كتاب القانون في الطبّ لِابن سينا، فمالوا إليه، وتركوا الملكي بعض التّرك...".[68]

وعلى غِرار كتب (فردوس الحكمة) و(الحاوي في الطبّ) و(القانون) و(المنصوري) وغيرها؛ فقد تُرجِم هذا الكتاب إلى اللّاتينية، ولقِيَ إقبالاً كبيراً من أطبّاء الغرب المسيحي، لكنّ طريقة اِنتِقال كتاب (الكتاب الملكي) إلى بلاد الغرب المسيحي يختلف عن الكتب السّابق ذكرُها؛ ذلك أنّها كانت غريبةً إذْ تعرّض ابن العبّاس الأهوازي إلى السرِقة العلمية من طرف مُتَرجِمي كِتابِه إلى اللّاتينية؛ وعلى رأسهم

" قسطنطين الإفريقي " الذي قام بِترجمة الكتاب ضِمن مجموعة من الكتب العربية في القرن الحادي عشر، ونَسَبَهُ إليهِ، ثمّ ظَهَرَ الكتاب أيضاً في مجموعة ترجمات الكتب العربية لِـ"إسحاق بن سليمان الإسرائيلي "، وظلّت قضية نسب هذا الكتاب وعدد آخر من الكتب المترجَمَة يُحيطها الغموض، وهكذا أصبح الكتاب مُتداولاً بين النّاس على أنّه من تأليف شّخصين مُختلِفين؛ إلى أن تمكّن " إسطِفان الأنطاكي" من إنصاف الرّجل [69]؛ حين اِكتشف بعد ترجمتِه للكتاب أنّه من تأليف" الأهوازي " وليس " قسطنطين الإفريقي".

5. الهوامش:

(1) هومحمّد ابن زكرياء الرّازي الصيرفي ؛ الملّقب بأبي الطبّ العربي ؛ وُلِد في مدينة الريّ سنة 251 هـ؛ أي عايَشَ الخليفة العبّاسي المقتدر (279هـ –289 هـ) ؛ جَمَعَ بين الطبّ وعلوم أخرى كالكيمياء وعلم الفلك والفلسفة والشعر والأدب ؛ كما كان في صِغَرِهِ ماهراً في الغناء وضرب العود ؛ يعتبر رائد الطبّ الإسلامي إلى جانب . ابن سينا . بدون منازعٍ . وقد شَمِلَت إنجازاتُه اِختصاصاتٍ متعدّدة ؛ كالجراحة والتشريح والطبّ النّفسي، وطبّ العيون والأمراض التناسلية، وأبْدَعَ في وصف وتشخيص الأمراض والعِلل، وتفنّن في علاجها . توفي سنة "311 هـ عن عمرٍ ناهز ستّين عاماً من أشهر مؤلّفاتِه : (الحاوي في الطبّ)، (المنصوري) ....إلخ . للمزيد انظر/ ابن أبي أصيبعة، عيون **الأنباء في طبقات الأطبّاء**، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، دت، ص416 . 417. ظهر الدّين البيهقي، **تاريخ حكماء الإسلام**، تحقيق محمد كرد عليّ، مطبعة الترقّي، دمشق 1365 هـ، ص21.

(2) علي بن عبد الله (الدفاع)، **روّاد علم الطبّ في الحضارة العربية الإسلامية** ط1، مؤسسة الرّسالة، بيروت (لبنان) 1998م، ص 212.

(3) حربي عبّاس وحسّان حلّاق، **العلوم عند العرب" أُصولها وملامِحها الحضارية"**، دار النّهضة العربية، بيروت، 1995. ص 292.

(4) جمهرة من المستشرقين، **تراث الإسلام**، ترجمة جورجيس فتح الله، ط 2، دار الطليع، بيروت، 1972، ص 464.

(5) **نفسه**.

(6) **أدرنه**: مدينة تركية ؛ تقع على نهر مارنيسيا؛ قرب الحدود اليونانية، كانت عاصمة العثمانيين في الفترة ما بين (1362 . 1453)، فيها العديد من الآثار البيزنطية والإسلامية؛ أهمّها " جامع السليمية " . للمزيد انظر/ آمنة أبوحجر، **موسوعة المدن الإسلامية**، ط 2، دار أسامة للنّشر والتوزيع، عمّان، الأردن، 2010 م، ص 254.

(7) محمّد شوكت الشطّي، **تاريخ الطبّ" أعلامه وآدابُه"**، مطبعة طربين، 1967م، ص 223.

(8) **المرجع نفسه**، ص 224.

(9) الدقّاع، **مرجع سابق**، ص 212؛ محمّد أمين فرشوخ، **موسوعة عباقرة الإسلام في العلم والأدب والفكر والقيادة**، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1992م، ص46.

(10) زيجريد هونكه، **شمس العرب تسطع على الغرب**، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقي، ط2، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنّشر، بيروت، 1969م، ص 278.

(11) أبوبكر محمد الرازي، **الحاوي في الطبّ**، تحقيق هيثم طعيمي، دار إحياء التراث، بيروت، 2002م، ج7، ص 425.

(12) الدقّاع، **مرجع سابق**، ص 213.

(13) Gustave Le Bon , La Civilisation des arabes, Casbah – édition, Alger 2009, p 452 .

(14) راغب السرجاني، **قصّة العلوم الطبّية في الحضارة الإسلامية**، ط 1، مؤسسة اقرأ، القاهرة، 2009م، ص46 .

(15) **الطاعون**: هوداء وَرَمي، وبائي، مُعدٍ؛ يُصيب الجرذان، وتنتقل عدواه بواسطة لذع البراغيث؛ التي تعيش مُتطفّلةً على هذه الحيوانات. للمزيد انظر/ عبد الرحيم مارديني، **موسوعة كنز المعلومات**، دار المحمّدية، الجزائر، دت، ص 274.

(16) الدقّاع، **مرجع سابق**، ص 213.

(17) هوأبوعليّ الحسين بن عبد اللّه ابن سينا (ت 429 هـ/ 1037م)؛ الملقّب بـ " الشيخ الرّئيس " المعروف عند الأوربيين باسم" Avicenna "، هومن أعظم علماء المسلمين؛ أبْدَعَ في علم الطبّ وفي علومٍ أخرى ذي صلة؛ كالكيمياء والصيدلة والبيطرة، والفلسفة والأدب والشعر ...إلخ؛ من أشهر مؤلّفاته كتاب (الشفاء) وكتاب (القانون في الطبّ) وغيرها من المؤلّفات التي أصبحت مرجعاً مهمّاً لطلبة العلوم الطبّية والصيدلانية في البلاد الإسلامية وفي الغرب المسيحي. للمزيد انظر/ ابن أبي أصيبعة، **مصدر سابق**، ص437، 438.

(18) الجمرة الخبيثة: مرض يُصيب الماشية والخيل، يتميّز بِارتفاعٍ شديدٍ في درجة الحرارة، وبِظهور بُقع حمراء؛ سرعان ما تتحوصل، لِتُشبِهَ الفقاعة وتُغطّيها قشرة سوداء؛ فاحمة من نزيفٍ أسودٍ كالفحم، ويتوفّى المريض في غُضون أُسبوعٍ إذا لمْ يُعالج. للمزيد انظر/ محمد عبد الرحمن مرحبا، **مرجع سابق**، ص297.

(19) أبوعلي الحسين بن عبد الله بن سينا، **القانون في الطبّ**، تحقيق إدوارد القشّ، مؤسسة عزّ الدّين للطباعة والنّشر، بيروت، لبنان، 1993م، مج3، ص 1916.

(20) محمّد بن عبد الرحمن مرحبا، **المرجع في تاريخ العلوم عند العرب**، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1998م، ص297.

(21) **المرجع نفسه**، ص297.

(22) أحمد شوكت الشطّي، **مرجع سابق**، ص252، 253.

(23) عبد الرحمن محمد العيسوي، **علم النّفس الإكلينيكي**، الدار الجامعية، بيروت، لبنان، 1992م، ص 41.

(24) **المرجع نفسه**، ص31.

(25) فرويد سيجموند (1856 . 1939): طبيب نمساوي، مُؤسس مدرسة التحليل النّفسي، وُلِد في " موارفيا "، عاش معظم حياتِه في " فيينا " من أهمّ كُتُبِه: (تفسير الأحلام)، (مدخل إلى التحليل النّفسي)، (حياتي والتحليل النّفسي) ...إلخ . للمزيد انظر/ كمال محمد الدسوقي وآخرون، **مرجع سابق**، ص1746.

(26) عبد الرحمن محمد العيسوي، **مرجع سابق**، ص34.

(27) محمد بن عبد الرحمن مرحبا، **مرجع سابق** ، ص 302.

(28) **المرجع نفسه**، ص 303.

(29) هو الحسن بن سوار بن بابا البغدادي؛ طبيبٌ ينتمي إلى أسرة نصرانية من أصلٍ فارسيٍ، ويُعرَف بـ " ابن بهنام بن الخَمّار "، وبهنام باللّغة الفارسية تعني الخير ؛ لِذا كُنِيَ بـ " ابن الخير "، أمّا تسميته بـ " ابن الخمّار "؛ فلِأنّ والِده كان نصرانياً يصنع ويبيع الخمر. وُلِد ببغداد سنة 331 هـ، ويُجهَلُ تاريخ وفاتِه ؛ لكنّ الثّابت أنّه اِعتنق الإسلام في آخر حياته، وقد عُرِفَ بذكائه وفِطنته، وسِعة اِطّلاعِه، وغزارة عِلمه وكثرة مصنّفاته. للمزيد انظر/ ابن أصيبعة، **مصدر سابق**، ص 428 أبو الحسن يوسف جمال الدّين القفصي، **تاريخ الحكماء من أخبار العلماء بأخبار الحكماء**، تحقيق جوليوس ليبارت، لايبزيغ، ألمانيا، 1903م، ص 149.

(30) الدفّاع ، **مرجع سابق**، ص 260.

(31) أحمد بن محمّد الطبري ؛ المكنّى بـ " أبي الحَسَن "، لا تُعرَف سنة ميلاده ولا وفاتِه، ولكنّ الأرجح أنّه كان حيّاً قبل 366 هـ، طبيبٌ من طَبَرِستان؛ عاش متنقّلاً بين أقاليم بلاد فارس؛ كالرّي والأهواز وهمذان وأصفهان، ذاع صيتُه ونال شهرةً عظيمةً بين معاصريه، وكان محلّ إعجاب واِحترام من حوْلَه من النّاس في كلّ المناطق التّي حلّ بها ؛ نظراً لذكائه وسِعَةَ اِطّلاعه وثقافتِه الواسعة، وتفوّقِه على أطبّاء زمانه ؛ الشيئ الذي جَعَلَ الأمراء يُقرّبونه إليهم؛ لاسِيَما والي الأهواز، ثمّ علا به المقام إلى أن أصبَح الطبيب الخاص للخليفة " ركن الدّين البويهي "، من أشهر مؤلّفاتِه كتاب (الكنّاش). للمزيد انظر/ ابن أبي أُصيبعة، **مصدر سابق**، ص427.

(32) الدفّاع ، **مرجع سابق**، ص 241.

(33) زيجريد هونكه، **مرجع سابق**، ص 272.

(34) الجذام: هو علّة تتآكل منها الأعضاء وتتساقط . للمزيد انظر/ عبد الرحيم مارديني، **مرجع سابق**، ص 264.

(35) زيجريد هونكه، **مرجع سابق**، ص 273.

(36) الدفّاع ، **مرجع سابق**، ص 177.

(37) محمد بن عبد الرحمن مرحبا، **مرجع سابق**، ص 282.

(38) **نفسه**.

(39) **المرجع نفسه**، ص 283.

(40) **المرجع نفسه**، ص 285.

(41) أحمد شوكت الشطّي، **مرجع سابِق**، ص249.

(42) حربي عبّاس وحسّان حلّاق، **مرجع سابق**، ص 294.

(43) الدفّاع ، **مرجع سابق**، ص 301.

(44) أحمد شوكت الشطّي، **مرجع سابِق**، ص249.

(45) يوسف فرحات، **علماء العرب**، الشركة المشرقية للمطبوعات، د م ط، بيروت، لبنان، 1986م، ص 137.

(46) ابن أبي أُصيبعة، **مصدر سابق**، ص115.

(47) زيجريد هونكه: **مرجع سابق**، ص 253.

(48) **المرجع نفسه**، ص254.

(49) عبد الرحمن محمد العيسوي، **مرجع سابق**، ص 34.

(50) شمس العرب تسطع من الغرب، **مرجع سابق**، ص 255.

(51) الدفّاع ، **مرجع سابق**، ص249.

(52)عبد الحليم منتصر، **تاريخ العلم ودور العلماء في تقدّمه**، ط 3،دار المعارف، الإسكندرية،مصر، 1969م، ص 230.

(53) الدفّاع، **مرجع سابق**، ص176.

(54) ابن أبي أُصيبعة، **مصدر سابق**، ص125.

(55) جمهرة من المستشرقينن، **مرجع سابق**، ص 426. Gustave Le Bon : La civilization des arabes , p 447

(56)Gustave Le Bon : La civilization des arabes , p 446 .

(57) جيراردو الكريمونتي(ت 611 هـ / 1214 م): قضى معظم حياتِه في طليلة، ترجم أزيد من سبعين كِتاباً من الكتب العربية؛ في علومٍ متعدّدة كالطبّ والرياضيات والفلسفة والفلك ...، لِذلك لُقِّب بـ " أبي الترجمة والمترجمين " . للمزيد انظر/ أحمد شوكت الشطّي، **مرجع سابق**، ص 256.

(58) الدفّاع، **مرجع سابق**، ص220.

(59) **نفسه**.

(60) عبد الحليم منتصر، **مرجع سابق**، ص 128 . الدفّاع، **مرجع سابق**، ص 306.

(61) أحمد شوكت الشطّي، **مرجع سابق**، ص256.

(62) الدفّاع، **مرجع سابق**، ص303.

(63) أحمد شوكت الشطّي، **مرجع سابق**، ص259.

(64) وِليم أوسلر (1849 ـ 1919): طبيب كندي؛ درّس في العديد من الجامعات الكندية والأوربية، تحصّل على لقب " سير " سنة 1911م، تتضمّن مُشاهداتِه الطبّية العديدة ما يختص بِصفيحات الدّم؛ وكلّ ما يتعلّق بكريات الدّم الحمراء والبيضاء، من أشهر مؤلّفاتِه (مبادئ ممارسة الطبّ الباطني)، (موجز في تاريخ الطبّ). للمزيد انظر/ محمد شفيق غربال، **مرجع سابق**، ص264.

(65) الدقّاع، **مرجع سابق**، ص306.

(66) محمد بن عبد الرحمن مرحبا، **مرجع سابق**، ص 297.

(67) الدقّاع، **مرجع سابق**، ص306، ص 247.

(68) ظهر الدّين البيهقي، **مرجع سابق**، ص 332.

(69)Gustave Le Bon : La civilization des arabes , p 447.